

الفصل الثامن

العمارة فى آسيا الوسطى

العمارة فى سمرقند فى العهد التيمورى

(٧٧١-٨٠٧هـ / ١٣٧٠-١٤٠٥م)

سمرقند الياقوتة العظيمة، إحدى كبرى المدن فى جمهورية أوزبكستان الحالية، وأوزبكستان بمعنى أرض الأذبك، وهى كلمة فارسية من شقين: اذبك وتعنى سيد نفسه وستان بمعنى الأرض، وكانت سمرقند عاصمة أوزبكستان، غير أنه منذ أن اجتاحت قوات الجنرال الروسى (كاوفمان) الإمارات الإسلامية فيما وراء النهر عام (١٢٨٥هـ/١٨٦٨م) فى ظل حكم القيصر ألكسندر الثالث تحولت العاصمة إلى طشقند بهدف تقليص الدور التاريخى للمدينة الإسلامية، ومنذ ذلك الحين لم تعد سمرقند أكثر من متحف للفن والعمارة.

وسمرقند مدينة مشهورة بجودة هوائها وعذوبة مائها ووفرتها وخصوبة بساينها وفواكهها الحلوة، وينزل فيها المطر بكثرة فى الربيع والخريف، وتكسو جبالها المحيطة بها الثلوج فى الشتاء، واشتهرت سمرقند عبر التاريخ بالحرير وكان يعرف بالحرير السمرقندى.

وقد ذكرها الرحالة والجغرافيون فى كتاباتهم حيث يقول ابن بطوطة عن سمرقند: "وهى من أكبر المدن وأحسنها وأتمها جمالا، مبنية على شاطئ واد يعرف بوادى القصارين عليه النواعير تسقى البساتين، وعنده يجتمع أهل البلد بعد صلاة العصر للنزهة والتفرج، ولهم عليه مصاطب ومجالس يقعدون عليها، ودكاكين تباع فيها الفاكهة وسائر المأكولات، ويقول أيضا: "وأهل سمرقند لهم مكارم أخلاق ومحبة فى الغرب.

ويصف الاصطخرى سمرقند فى كتابة المعروف بالمسالك والممالك بقوله: "والموصوف من متنزهات الأرض فى صغد سمرقند ونهر الابله وغوطه ودمشق، وصغد سمرقند أشهر الأماكن الثلاثة، وهى أذكى بلاد الله وأحسنها أشجارا

وثمارا، وفي عامة مساكنهم البساتين والحياض الجارية، قلما يخلو مسكن أو دار من نهر جار .

وأورد ياقوت الحموى سمرقند فى كتابه معجم البلدان بقوله: "كأنها السماء للخضرة وقصورها الكواكب للإشراق، ونهرها المجرة للاعتراض، وسورها الشمس للاطباق .

وتقع مدينة سمرقند على ضفاف نهر زرافشان(ناثر الذهب) على بعد حوالى(٢٠٠) كيلو متر شرقى بخارى، وبجوار مدينة سمرقند القديمة (الأثرية) توجد أطلال مدينة افرسيان التى تعود إلى حوالى (٥٠٠) سنة قبل الميلاد حتى تدمير المغول لها عام (٦١٧هـ/ ١٢٢٠م) وكان فى نهاية القرن الأول الهجرى/ بداية القرن الثامن الميلادى قد استولى عليها القائد العربى (قتيبة بن مسلم الباهى) وبعد الفتح أنشأت مدينة جديدة فى الجنوب الغربى منها هى مدينة سمرقند التى أصبحت مركزا صناعيا هاما لإنتاج الورق، وقد عرفت أيضا صناعة الفخار والزجاج، حيث أظهرت الحفائر الأثرية عن وجود بقايا لأفران الفخار والزجاج، كما كشفت عن يقايا المسجد الكبير الذى أحرق أثناء غزو المغول لها .

وقد عادت لسمرقند مرة أخرى شهرتها العالمية فى عام(٧٧١هـ/ ١٣٧٠م) عندما استولى عليها الإمبراطور المغولى تيمور لنك واتخذها عاصمة له، وقد أحاط المدينة بسور طوله (٧) كيلو متر وجعل لها أربعة أبواب:

باب الصين الذى يقود إلى الشرق، وباب بخارى المدينة التوأم (بل المدينة الأم) إلى الشمال، وباب النوبهار إلى الغرب، حيث كان يوجد معبد بوذى فى الزمن القديم، والباب الكبير أو باب كش (كيش) إلى الجنوب الذى يرتبط باسم بلدة كش، موطن تيمور الأصىلى .

وجعل بقلب المدينة ميدانا عرف بميدان ريكرستان (وتعنى المكان الرملى) كان مقرا للسوق الرئيسى الذى يموج بالرواج التجارى وتتوقف فيه القوافل المتجهة بين الشرق والغرب .

وشيد بالمدينة العديد من المبانى تمثلت فى عدد من القصور، وقلعة، ومسجد يحمل اسم زوجة بى بى (بيبى) خانم، ومدرسة، كما أنشأ مدينة جنائزية(شاهى

زندة)، وضريحا (جور أمير) وغيرها، غير أنه للأسف لم يتبق من عمائر تيمور في سمرقند إلا القليل.

وكما هي سنة الحياة في انهيار أمم وقيام أخرى، فقد ظهر على مسرح الأحداث أوائل القرن (٧هـ/١٣م) في منطقة آسيا الوسطى المغول الذين بدأ طوفان زحفهم على ممالك السلاجقة تحت قيادة جنكيزخان في حوالى سنة (٦١٥هـ/١٢١٨م) وتمكن هذا القائد فى مدة وجيزة من هزيمة السلاجقة وغزو مدينتى سمرقند والرى العاصمة فى عام(٦١٧هـ/١٢٢٠م)، ثم امتد نفوذهم ليشمل باقى شرق العلم الاسلامى.

وعندما دخل المغول سمرقند كانت واحدة من أكبر وأزهى المدن الخوارزمية وأكثرها رجاء، فحاصروها وقتلوا حاميتها من الجند الخوارزمية، ثم أمروا أهلها بعشرات الآلاف بالخروج من ديارهم ومساجدهم، حيث تم ذبحهم بدون تفرقة بين رجل وطفل وامرأة وحطموا كافة مساجدها وأشعلوا فيها النيران، ونهبوا المدينة وأسواقها ومتاجرها حتى بدت المدينة كمدن الأشباح الخاوية.

وعن خراب المدينة على يد جنكيزخان يصف ابن بطوطة ذلك بقوله: "وكانت على شاطئه (يقصد وادى القصارين السابق ذكره) قصور عظيمة، وعمارة تنبئ عن علو همم أهلها، فدثر أكثر ذلك... وكذلك المدينة خرب كثير منها، ولا سور لها ولا أبواب عليها، وفى داخلها البساتين.

وقد استطاع فرع من الأسرة المغولية أن يستقل بحكم إقليم بخارى غرب تركستان ويعرف هذا النوع بأسرة (برلاس) من سلالة حنكيزخان، وفى أواخر القرن (٨هـ/١٤م) ظهرت هذه الأسرة المغولية على مسرح الأحداث السياسية (٧٧٢ - ٩٠٨هـ/١٣٧٠ - ١٥٠٢م) متمثلة فى أحد الحكام المحليين الأقوياء ويدعى تيمور لئك (أى تيمور الأعرج)، الذى ولد بالقرب من كيش (كيش) فى شهر سيز (المدينة الخضراء) من أعمال ما وراء النهر فى ٢٥ شعبان سنة ٧٣٦هـ/٨ إبريل ١٣٣٦م، وأبوه الأمير تارغاي (أورتغاي) وإلى كيش ونواحيها، وقد اعتلى العرش سنة (٧٧١هـ/١٣٧٠م)، وكان مركز حكمه فى أول الأمر مدينة كيش السابق ذكرها جنوب سمرقند، وقد تميز بالذكاء والحكمة والشجاعة والدهاء

وسرعة الحركة وخفتها وسيطرته على جنده سيطرة مطلقة، وكان متوسط القامة، كبير الرأس، نضر البشرة، وقد ابيض شعره في سن مبكرة، وأصاب جرحان في مقدمة يديه مشوهة بعض الشيء، وتوجد تصاوير له رسمها فنانون من الفرس والهنود وجلها محض الخيال.

وقد تسمى تيمور بعده ألقاب منها (كروكان) أى تيمور المليح، والأمير الكبير، وصاحب قران، وفي عام (٧٩٠هـ/١٣٨٨م) لقب بالسلطان، كما لقب بعد وفاته (جنت مكان) أى ساكن الجنة، وكان لتيمور عدة زوجات حيث تزوج من أميرتين صينيتين يطلق عليهما ابن عربسah اسم الملكة الكبرى، وتزوج أيضا من تومان ابنة الأمير موسى والى نخشب (نقشب)، والوجاى تركمان خاتون حفيدة الأمير قزغان، ومن جلبان، وهى امرأة نادرة الحسن

قتلها لذنب توهمة، وكان لتيمور سرادى كثيرات، وكان له من الأولاد أربعة ذكور.

وقد مرض تيمور فى ١٠ شعبان ٨٠٧هـ/١٢ يناير ١٤٠٥م، وشعر بدنو أجله وهو فى طريقه لفتح الصين بعد أن عبر نهر جيغون، فأوصى بكل ما يريد، وتوفى فى ١٥ شعبان ٨٠٧هـ/١٧ يناير ١٤٠٥م بالغا من العمر إحدى وسبعين سنة قضى منها ست وثلاثون سنة فى الحكم قضاها بين حروب وفتوحات، ووضع جثمانه فى تابوت من الأبنوس وحمل بعد ذلك بشهرين إلى سمرقند حتى احتفل بجنائزه ودفن فى ضريح ضخيم يعد أية من آيات العمارة يعرف باسم جور أمير.

وقد تمكن من وضع اسمه فى التاريخ الوسيط كواحد من أكثر القادة دموية وشراسة، فقد تغلب على أقاربه من أسرة برلاس وحطم كل خصومه وهدد كل أعدائه وكان المسلمون أول ضحاياه حيث دمر إمبراطوريتهم فى الهند وبلاد ما وراء النهر ثم اتجه إلى إيران والعراق فغزاهما وانتصر على الدولة المظفرية ودولة الكرت فى إيران، ودولة آل جلائر فى العراق، وبذلك خلف تيمور الأسرة الأيلخانية المغولية (أبناء عمومته) فى حكم إيران والعراق، بعد أن فتح تبريز عام (٧٨٨هـ/١٨٨٦م) وبغداد عام (٨٠٤هـ/١٤٠١م)، ووصلت جيوشه فى عام (٨٠٦هـ/١٤٠٣م) إلى آسيا الصغرى وتمكن من هزيمة الأتراك العثمانيين الذين

خلفوا السلاجقة الأتراك في حكم بلاد الأناضول وأسر سلطانهم بايزيد الأول، وهزم المماليك في حلب وحماة ودمشق دون أن يتمكن احد من رفاقه وتفادى مذابحه، ولهذا تعتبر وفاة تيمورلنك انفراجا للعثمانيين والمماليك على حد سواء .

وقد خرب تيمورلنك شيراز ودلهي ودمشق وحلب وحماة . . . وغيرها وذبح أهلها واتخذ من سمرقند عاصمة له، وظلت كذلك طوال حياته حتى نقل من ابنه شاه رخ (٨٠٧ - ٨٥١هـ / ١٤٠٥ - ١٤٤٧م) مركز الحكم إلى عاصمة جديدة هي مدينة هراة، وعلى الرغم من قسوة تيمورلنك في تدمير المدن إلا أنه اهتم برعاية الفن وظهر في عهده الفن المعروف بالفن التيمورى، ووصلت البلاد في عهده إلى درجة كبيرة من الثقافة الفنية، وصارت عاصمته سمرقند أضخم وأعظم عاصمة في الشرق الإسلامى، حيث استقدم لها العمال المهرة من جميع ولايته، وقد ملئت بالعمائر الضخمة، وجعل منها سوقا يؤمها الناس من جميع الأجناس، ولم يخر وسعا في تشجيع التجارة والصناعة وقرب له العلماء .

تابع النهضة الفنية والمعمارية قمة ازدهارها عند تشجيع وعناية الحكام بها، ومن هؤلاء الحكام الذين اهتموا بالفنون والعمارة تيمورلنك، الذى على الرغم من شهرته وقسوته كما سبق ذكره فى تدمير المدن الكبيرة المعاصرة له، مثل: دلهي، شيراز، دمشق، حلب، وحماه وغيرهما، إلا أنه اهتم بعاصمته وقاعدة ملكه سمرقند (٧٧١ - ٨٠٧هـ / ١٣٧٠ - ١٤٠٥م) ويذكر المؤرخون أنه فعل ذلك لكى يجعل عاصمته تصبح عروس الشرق الإسلامى فى المدينة والفنون، حتى أنه ذهب إلى حد اعتبار الاشتراك فى عمائر فرضا على مهرة البنائين والصناع فى الأقاليم المختلفة من دولته .

وعلى الرغم من مرور (٦٠٠) سنة على وفاة العاهل إلا أن الآثار الباقية فى مدينة سمرقند تدل على ما كانت عليه هذه المباني من عظمة وفخامة، لأنها كانت تطورا طبيعيا لما كانت عليه فى العصرين السلجوقى والأيلخانى، فقد تأثر المعمار السمرقندى عند تشييده للعمائر فى العهد التيمورى بالمباني والعناصر المعمارية والفنية التى كانت معروفة فى عمائر هاتين الدولتين فى منطقة بلاد ما وراء النهر وغيرها، حيث يعتبر أحد الورثة الشرعيين لتلك الطراز من العمائر والفنون . ولذا

جاءت عمائره فى تلك الفترة غاية فى الروعة والإتقان نتيجة تمرسه على بنائها لفترة طويلة بلغت حوالى ثلاثة قرون وربيع (٤٤٧ - ٧٧٢هـ / ١٠٥٥ - ١٣٧٠م) هى عصر الدولتين السلجوقية والایلخانية .

غير لأنه للأسف لم يتبق من تلك المبانى الكثير بسبب الحروب والكوارث الطبيعية (الزلازل) من جهة، ومن جهة أخرى بفعل ما كان يقوم به الأهالى من استخدام الأحجار وطوب تلك المبانى بعد هجرها مثلما حدث بالفعل فى مدينتى سامراء والفسطاط، وغيرهما، ولكن المبانى الباقية توضح بجلاء ما كانت تتسم به من تناسق وروعة وفخامة فى التخطيط والزخرفة .

أ - مسجد بى بى (بيبى) خانم؛

تميزت عمارة مسجد الجامع فى سمرقند فى العهد التيمورى بالضخامة والاتساع كما كان الحال فى عهد السلاجقة والایلخانين، حيث شيد مسجد بى بى خانم الجامع على النسق الذى كانت بدايته فى مسجد الجمعة فى مدينة أصفهان، وإلى إقامة الوزير نظام الملك حوالى سنة (٤٦٦هـ / ١٠٣٧م) فى عهد السلطان ملك شاه، ثم أصبح هو الطراز التقليدى لعمارة المساجد التى شيدت بعد ذلك فى إيران ومنطقة آسيا الوسطى .

يقع مسجد بى بى (بيبى) خانم الجامع فى الجهة الشرقية من ميدان يكستان الذى يتوسط مدينة سمرقند، وبالتحديد فى شارع طشقند، وقد بنى أواخر القرن (٨هـ / ١٤م) فى أعقاب حملة تيمور لتلك المظفرة إلى الهند سنة (٨٠١هـ / ١٣٩٩م)، وتم بناؤه سنة (٨٠٧هـ / ١٤٠٤) قبل شروعه فى حملته على الصين التى مات فيها، حيث قام تيمور لنك بوضع أساس المسجد وكان فى ذلك الوقت قريبا من البوابة الشمالية للمدينة، ويحمل المسجد اسم زوجة تيمور لنك الكبرى (سراى ملك خوانم) التى عرفت باسم بى بى خانم، وذلك راجع كونها مدفونة بالقبلة الملحقة بالمسجد خلف إيوان القبلة، وليس كما يزعم البعض أن بى بى خانم هى التى شيدته لزوجها، وهذه التسمية من المؤكد أنها جاءت بعد دفنها فيه لأنه كان يعرف وقت إنشائه بمسجد سمرقند الجامع، ومسجد الشاه .

وتخطيط المسجد على شكل مستطيل طول كل ضليعة الجنوبى الشرقى

والشمالي الغربي (١٦٧م)، ويتوسطه صحن مكشوف مستطيل مساحته (٧٤×٦٤م) كان مبلطا بألواح من المرمر والفسيفساء الخزفية، وبوسط الصحن توجد فوارة (ميضأة) للوضوء، ويتوسط كل ضلع من أضلاع الصحن إيوان.

الإيوان الجنوبي الغربي: هو أكبر الإيوانات، وهو إيوان القبلة، الخاص بصلاة الجمعة نظرا لكبر مساحته، وهو يفتح بكامل اتساعه على الصحن، ويغطيه قبو مدبب كبير من النوع ذى الأربع مراكز، وعلى جانبيه فتحة توجد مئذنتان كل منهما ذات ثمانية أضلاع، ويزين جدار القبلة زخارف هندسية منفذة بالآجر المطلي بالميلا الزرقاء، ويتخللها آيات قرآنية بالحظ الكوفي، وكان فى مقدمة إيوان القبلة كرسى كبير لتلاوة القرآن الكريم من الرخام محمول على تسع دعائم صغيرة، وهو يتكون من عدة ألواح يعلوها منشورين كل منهما على شكل مثلث قائم الزاوية، وقد زينت بالحفر بأشكال الزهور والكتابات المستعليق التى تشير إلى أنه صنع فى منتصف القرن (٩هـ / ١٥م) بأمر من أولغ بك حفيد تيمور لنگ، ولكن عقب زلزال (١٨٧٥م) نقل الكرسى ووضع فى صحن المسجد.

وخلف إيوان القبلة توجد قبة ضخمة قطرها (٢٠م) وارتفاعها (٤٠م) مما يشير إلى ضخامتها، تقوم على رقبة اسطوانية زينت ببلاطات القاشانى ذى اللون الفيروزى، وقد دفنت بهذه القبة سراى ملك خانم زوجة تيمور لنگ الكبرى ابنة الحاكم المغولى خان كازان، المعروفة باسم بى بى خانم والذى ارتبط اسمها بالجامع، وإلى جانب دفن عدد من النساء من سلاسله التيموريين، ولكن أقدم القبور جميعا هو قبر بى بى خانم.

الإيوان الشمالى الشرقى: يقع فى مواجهة الإيوان السابق، ولكنه أقل حجما، مغطى بعقد مدبب، وبصدره فتحة باب تؤدى إلى كتلة المدخل الرئيسى، ويطل الإيوان على الصحن بكامل اتساعه، وهو يشبه فى ذلك الإيوان المقابل لإيوان القبلة فى المدرسة المستنصرية ببغداد (٦٢٥ - ٦٣١هـ / ١٢٢٧ - ١٢٣٤م).

أما الإيوانات الجانبيان الشمالى الغربى والجنوبى الشرقى فمتساويان فى المساحة وهما أقل حجما من إيوان القبلة، ويغطى كل منهما قبة مزينة ببلاطات القاشانى التى صنعت خصيصا لتغطى هذه القباب، وتزينها الزخارف النباتية

والهندسية، والكتابية، وهذان الإيوانان لا يفتحان على الصحن بكامل اتساعهما ولكن كل منهما مغلق ويربط بينه وبين الصحن فتحة باب تفتح فى الصيف وتغلق فى الشتاء؛ لأن هذين الإيوانات كانا مخصصان للتدريس للطلبة وذلك راجع إلى طبيعة الظروف المناخية فى منطقة آسيا الوسطى التى تزيد فيها البرودة وتكثر فيها الأمطار فى فصل الشتاء نسبيا.

والمساحات المحصورة بين الإيوانات الأربعة تشغلها عدة غرف كانت تستخدم لإلقاء الدروس لطلبة العلم جانب استخدامها كمقر لسكن الأساتذة والطلاب والقائمين بالعمل فى المسجد، حيث يجاور إيوان القبلة من كل جانب أربع غرف، ويجاور الإيوان المقابل له من كل جانب سبع غرف، أما الإيوانان الجانبيان فعلى جانبى كل منها تسع غرف، وهى مختلفة المساحات ويتقدم جميع الغرف من جهة الصحن مساحات مغطاة بأقبية تبدو فى مظهرها كأنها إيوانات صغيرة تشرف على الصحن مباشرة بدون حواجز بصدورها أبواب تؤدى إلى تلك الغرف التى يبلغ عددها ثمان وخمسون غرفة سفلية تتركز أسقفها على (٤٠٠) عمود رخامى، يعلوها طابق ثانى له نفس عدد الغرف ولكنها تطل على الصحن بعقود مدببة، تعلو فتحات المساحات التى تتقدم الغرف السفلية، ويغشى الغرف العلوية، قباب خوذاتها مفصصة ومغطاة بالقاشانى الأزرق.

أما كتلة المدخل التى يتم الوصول منها إلى داخل المسجد فهى تقع فى منتصف الواجهة الشمالية، وتبرز عن سمت الواجهة بحيث تبدو فى مظهرها كمن الخارج على هيئة إيوان ضخمة مهيب ارتفاعه (١٥, ٢٢م) يصدره فتحة باب متوجة بعقد مدبب هو ترديد لفتحة الباب السابق ذكرها بالإيوان الشمالى الشرقى للمسجد، ويغلق على هذا الباب مصاريع من الخشب المصفح بمعادن نفيسة، ويعلوا فتحة الدخول لوح رخامى نقش به تاريخ البناء وسلالة نسب تيمور لنك، وكانت بأعلى واجهة كتلة المدخل آية قرآنية ضخمة الكتابة كان يشاهدها القادمين على بعد ميلين وتقرأ: " وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل"، وعلى جانبى فتحة كتلة المدخل توجد مئذنتان مئذنتان عظيمتا الحجم والارتفاع، ويزين كتلة المدخل والمئذنتان زخارف استخدم فيها الرخام والأحجار المنقوشة وبلاطات القاشانى والفسيفساء.

وإلى جانب ذلك يوجد فى أركان المسجد الخارجية أربع مآذن مستديرة بواقع مئذنة فى كل ركن، يتم الوصول إليها من داخل المسجد، وبذلك يكون عدد المآذن بالمسجد ثمان مآذن، أربع مآذن، فى الأركان، واثنان بطرفى كتلة المدخل، واثنان بطرفى إيوان القبلة، مع العلم بأن المئذنتين اللتان على جانبى كتلة المدخل أكثر ضخامة وارتفاعاً من باقى المآذن.

كما سبق تتضح مميزات وسمات عمارة المساجد الجامعة أو المسجد المدرسة فى وسط آسيا بصفة عامة وسمرقند بصفة خاصة فى عهد تيمور لىك التى توجز فى أن تخطيط المسجد يتكون من صحن مكشوف تحيط به أربعة أيونات أهمها وأكبرها إيوان القبلة، وأن للمسجد مدخل ضخيم كبير تذكارى، كما تعددت المآذن التى بنيت بالأجر المغطى ببلاطات القاشانى، ومزينة بالكتابات المنفذة بالخط الكوفى المربع بقطع صغيرة من القرميد، إلى جانب الزخارف النباتية والهندسية، وهى الزخارف ذاتها التى نجدها حول إطارات عقود الأيونات، وداخل الأيونات، وعلى رقاب القباب، وكتلة المدخل إلى جانب الخط النسئلق.

كما استعملت بلاطات القاشانى المتعددة الألوان التى يغلب عليها اللون الأزرق اللازورد والفيروزى والتركوأز فى تكسية القباب والجدران إلى جانب الجص المزين بالألوان.

ولم يبق المسجد على حاله بل تعرض لانتكاسات تتمثل فى أن تشييده كان على عجل إلى جانب جسمه الضخم الكبير، مما أدى إلى حدوث انهيارات فيه منذ السنوات الأولى لإنشائه كما ساهمت الزلازل فى تشوية وانهيار قبابه، وزادت من تصدع عقوده وإيواناته، حتى دمر زلزال سنة (١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م) جزئين كبيرين من كتلة المدخل ما زال موجودان فى صحن المسجد.

وتقوم الحكومة الأوزبكستانية بترميم هذا المسجد إلى جانب مدرسة تيمور لىك وآثار أخرى فى سمرقند بمناسبة الاحتفال بمرور (٦٠٠) عام على وفاته باعتبارها بطلمهم القومى.

ب - الأضرحة في سمرقند في عهد تيمورلنك؛

إذا كانت منطقة إيران ووسط آسيا قد عرفت الأضرحة فإن أقدم ما وصل إلينا في مدينة بخارى بالقرب من سمرقند، وهو ضريح إسماعيل بن أحمد الساماني الذي توفي عام (٢٩٥هـ/٩٠٧م) وتخطيطه مربع الشكل واستخدم في بنائه الحجر في ترتيب زخرفي جميل، وتغطية قبة قطاعها عقد نصف دائري وإلى جانب هذا الطراز عرفت نفس الفترة تشييد نوع آخر من الأضرحة على شكل برج ضريح جنبادي قابوس في إقليم جرجان شمالي غرب نيسابور سنة (٣٩٧ - ٣٩٨هـ/١٠١٦ - ١٠١٧م) وبدنه نجمي الشكل وتغطية قبة مخروطية.

وظل الطراز الأخير من الأضرحة معروفا في الدولة الغزنوية (٣٥١ - ٥٨٢هـ/٩٦٢ - ١١٨٦م) حيث وصلنا منه برجين أحدهما ينسب إلى السلطان مسعود الغزنوي (٤٨٩ - ٤٢١هـ/٩٩٨ - ١٠٣٠م)، والآخر للسلطان سعود الثالث (٥٠٨هـ/١١١٤م).

وفي العصر السلجوقي بعد ذلك (٤٤٧ - ٥٥٣هـ/١٠٥٥ - ١١٥٧م) ظلت الأضرحة البرجية هي المستعملة ولكن يرجع الفضل إلى السلاجقة في تطوير شكلها، وكانت على شكلين مختلفين الأول: على شكل برج له قبة نصف دائرية، وكان يدفن فيه رجال الدين والحكام وذوى السلطان مما أكسبه طابعا دينيا، والثاني: برجى مغطى بقبة مخروطية، وكان يدفن فيه الحكام، وهو يشبه في شكله برج السلطان محمود سالف الذكر.

وفي العصر الأيلخاني لم يطرأ تغيير على نموذج الضريح السلجوقي المشيد على هيئة برج وتعلوه قبة هرمية (مخروطية)، كما هو الحال في ضريح بمدينة مراغة، ينسب إلى إحدى بنات هولاقو، غير أنه عاد للظهور الضريح ذو القبة الصريحة، ومن أمثلة ذلك ضريح الجاتو الذي شيّد في مدينة سلطانية فيما بين عامي (٧٠٧ - ٧١٦هـ/١٣٠٧ - ١٣١٦م) وهو عبارة عن مبنى مئمن الأضلاع تعلوه قبة قطاعها عقد مدبب ذو مركزين.

وفي العهد التيموري (٧٧٢ - ٨٠٧هـ/١٣٧٠ - ١٤٠٥م) اختفى بناء الأضرحة التي على شكل أبراج ولها قباب مخروطية، وشاع بناء نوعين من

الأضرحة الأول: الأضرحة المربعة ذات القباب الصريحة ولها أمثلة فى جبانة شاهی زنده مثل ضريح تومان آقا، وأمیر زاده وشرين بيكه، وتوغلوتكين، والثانى: طراز جديد جمع بين الطرازين السابقين من أمثله ضريح جور أمير، وأضرحة أخرى فى الجبانة السالفة مثل ضريح شادی ملوك آقا.

١ - جبانة شاهی زنده:

شاهی زنده: معناها الملك الحى، وليس المقصود بذلك تيمورلنك ولكن المقصود هو (قثم بن العباس) عم الرسول ﷺ، الذى استشهد عام (٥٧هـ/٦٧٦م) فى إحدى الغزوات التى سبقت فتح بلاد ما وراء النهر، وتقول الأسطورة المتداولة هناك أن قثم عندما سقط شهيدا، أخذ بين يديه رأسه المقطوع ونزل بها إلى بئر عميق تودى إلى حديقة تحت الأرض ولا يزال حيا هناك حتى الآن. وهو يستشهدون على صدق القصة بالآية الكريمة المحفورة على قبره البديع وهى قول الله تعالى: " ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون" ونظرا لهالة التقديس والاحترام التى تحيط به فقد اعتبر المكان بقعة مباركة كان يدفن فيها الأمراء والأميرات والشخصيات الهامة، ولذا وقع الاختيار على هذا المكان ليكون مدفنا لبعض أفراد الأسرة التيمورية.

ويعود إنشاء جبانة شاهی زنده إلى القرن (٥هـ/١١م) واستمر الاهتمام بها حتى القرن (١٣هـ/١٩م)، وكانت تحتوى على عدد كبير من المباني الجنائزية والمساجد والمدارس أشهرها مدرسة (تمجاش بوجران) التى كانت أكبر المدارس الدينية خلال العصور الوسطى فى تلك المنطقة، وكانت هذه المباني تصور بصدق مجمل مدرسة ما وراء النهر المعمارية وتطورها، غير أنه دمرت معظم هذه البنايات عبر القرون، ولم يتبق منها الآن سوى عشرون مبنى، وتعود أغلب المباني الباقية بحالة جيدة إلى القرنين (٨ - ٩هـ/١٤ - ١٥م) فى الفترة ما بين (٧٧٨ - ٨٩٣هـ/١٣٧٦ - ١٤٣٥م) ويحيط بهذه الجبانة سور ويتصدرها مدخل مهيب شاهق الارتفاع قام بتشيدته حفيد تيمور لنگ أولغ بك سنة (٨٩٣هـ/١٤٣٥م)، غير أن تيمور لم يدفن بها ودفن فى ضريح (جور أمير)، كما دفن معه بعض أقربائه المباشرين فى بلاد ما وراء النهر خلال النصف الأخير من القرن (٨هـ/١٤م) والنصف الأول من القرن (٩هـ/١٥م).

ومن دفن في مقبرة شاهى زنده من أسرة تيمورلنك شقيقته الأميرة (شرين بيكه آقا)، والأميرة (تركان آقا)، وابنة أخت أو أخ تيمور الأميرة (شادى ملوك)، ومن زوجاته الأميرة (طوغلو تكين)، والأميرة (نزمان آقا)، والأميرة (تومان آقا) هذا إلى جانب قثم بن العباس عم الرسول ﷺ، كما دفن في ذات المقبرة عالم الفلك القاضى زاده الرومى معلم أولغ لنك وأمير سمرقند فيما بعد، وأمير زاده الذى لم يعرف من هو بعد.

والزائر لجبانة شاهى زنده بعد الدخول من البوابة الرئيسية للجبانة يجد (٣٦) درجة صخرية، يتم الوصول عن طريقها إلى حارة ضيقة فى نهايتها يقع ضريح قثم بن العباس عم الرسول ﷺ، ويتقدم ضريح القثم مجموعة من الغرف مزينة بالجص ومغطاة بأسقف خشبية ترتكز على أعمدة خشبية وعلى جانبى الحارة يوجد (١٦) ضريح بعضها تمثل عمارة الأضرحة فى العهد التيمورى، والأضرحة نوعان الأول: مربع الشكل وله واجهة رئيسية بها كتلة المدخل مثل ضريح تومان آقا (٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، وضريح شرين بيكه آقا (٧٨٧هـ/١٣٨٥م) وضريح أمير زاده (٧٨٨هـ/١٣٨٦م)، والثانى: مضلع الزوايا ولده مدخل كبير مثل ضريح شرين بيكه إحدى زوجات تيمور الذى أنشئ بعد الأول بحوالى عشر سنين، وتتميز واجهات الأضرحة التى بها المداخل بأنها مرتفعة، بحيث تحجب ورائها فى بعض الأحيان خوذات القباب.

وقد تميزت قباب الأضرحة فى هذه الجبانة بالتنوع الزخرفى الأخاذ فبعضها له توكسيات خارجية من البلاطات الخزفية المزججة والمنقوشة بالزخارف الملونة، والفسيفساء الخزفية الملونة، وبعضها الآخر تزيينه زخارف مجسمة فى الحجر وكأنها إحدى نباتات الصبار وقد جاء تنفيذ الزخارف المتنوعة النباتية والهندسية والكتاتبية غاية فى الدقة والإتقان، مما يجعلها وافية لأسلوب الزخرفة فى العهد التيمورى.

ولم تقتصر الزخرفة فى بعض أضرحة جبانة شاهى زنده على تزيين خوذات القباب ورقابها بالقاشانى والفسيفساء من الخارج، بل امتد ذلك ليشمل واجهات الأضرحة وكذلك كتلة البوابة الرئيسية للجبانة، حيث كسيت ببلاطات القاشانى والفسيفساء الزجاجية المنقوشة والمطلية بدقة متناهية غاية فى الرقة والإبداع يغلب عليها الألوان الأزرق والفيروزى والأحمر والأبيض والذهبي والأسود، يتضح فيها

الاهتمام الزائد الذى يليق بمكانة أصحابها حتى يمكن القول بحق إنها بمثابة متحف أصيل للطلاء الزخرفى، ويتضح لنا ذلك من خلال الآثار التالية.

٢ - ضريح شادى ملوك آقا:

يعد هذا الضريح هو أول أعمال معمار قام به تيمور لىك، ليس فى شاهى زنده فقط بل وفى سمرقند كلها، ويعود تاريخ إنشائه إلى سنة (٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م) - (١٣٧١م) وقد دفن فيه كل من ترقان آقا فى سنة إنشائه، ثم لحقت به شادى ملوك آقا فى العالم التالى (٧٧٣هـ/ ١٣٧٢م) ويغلب على الشريح اسم شادى ملوك، ومن حسن الحظ أن بقى مسجل عليه اسماء المعمارين اللذين شيدها وهم شمس الدين فخر الدين من سمرقند، وزين الدين من بخارى.

ويتكون الضريح من مئمن سفلى مبنى بالآجر بالقاشانى الفاتح والداكن اللون، وقد نتج عن هذا الاختلاف اللونى كتابات بالخط الكوفى المربع، وقد فتح بأحد أضلاع المئمن مدخل بعقد مدبب ذى أربعة مراكز، أما الأضلاع الأخرى فقد فتح بكل منها فتحة شباك مستطيلة، ومتوجهة بعقد مدبب فى مركزين، وترتفع جلسات الشباييك عن أرضية الشارع بمقدار كبير، وزينت كوشات عقود الشباييك بالتناوب برخام خالى من الزخرفة، وفسيفساء خرفية ويعلو كل شباك منطقة تأريخ مستطيلة ملبسة بالرخام الخالى من أى زخرفة، ويعلو المسن رقبة مستديرة قصيرة تأتى فوقها قبة منخفضة مزينة ببلاطات القاشانى.

٢ - ضريح شرين بيكه آقا:

شيد هذا الضريح فى سنة (٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م)، وقد قام بتصميمه المعمار استو على نصيفى، وهو يتكون من مربع سفلى بالآجر، بوسط كل ضلع من أضلاعه من أعلى فتحة شباك مستطيلة متوجه بعقد مدبب ذى مركزين، ويعلوا التريبع مئمن فوق رقبة اسطوانية ممتدة مزينة بزخارف كتابية بالخط الكوفى المنفذ ببلاطات القاشانى، ويوجد بالرقبة أربعة شباييك مستطيلة، يقع كل شباك منها فوق شباك من شباييك المربع السفلى للضريح، ثم تأتى بعد ذلك خوذة القبة التى تتركز عند اتصالها بالرقبة على صف من المقرصنات، وكان يغطى القبة بلاطات من القاشانى ولكنها تساقطت.

٣ - ضريح أميرزاده:

بقى هذا الضريح سنة (٧٨٨هـ/١٣٨٦م)، ويتميز بأن له مدخل ضخم، بواسطة فتحة بعقد مدبب ذي أربعة مراكز، وتزينه بلاطات القاشانى وقطع الفسيفساء الملون والكتابة نستعليق، وبصدر كتابة المدخل فتحة باب تؤدي إلى ضريح مربع تغطيه قبة مخصوصة كأنها نبته صبار، والضريح بقبته منخفض عن كتلة المدخل.

٤ - ضريح تومان آقا:

يرجع تاريخ إنشاء هذا الضريح إلى سنة (٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، وهو يتبع في طرازه القباب السمرقندية ذات الرقبة الاسطوانية الممتدة، وهو عبارة عن مربع سفلى تزينه بلاطات القاشانى، ويعلو التربع السفلى منطقة انتقال مثمثة، فوقها رقبة اسطوانية مستديرة ممتدة تزينها قطع الفسيفساء وبلاطات القاشانى ثم تأتي بعد ذلك خوذة القبة التي قطاعها على هيئة عقد مدبب ذي أربعة مراكز، وهي مغطاة ببلاطات القاشانى، ويتم الوصول إلى داخل هذه القبة عن طريق كتلة مدخل يتوسطها عقد مدبب ذو أربعة مراكز، كانت مزينة ببلاطات القاشانى، لم يتبق منها إلا أجزاء قليلة، وبصدر حجم المدخل فتحة باب مستطيلة متوجه بعقد مدبب، وهنا نجد كتلة المدخل أقل ارتفاعا من رقبة القبة.

ولو أننا عقدنا مقارنة سريعة بين جبانة شاهى زنده بسمرقند، وجبانة المماليك المعاصرة لها فى القاهرة نجد ثمة اختلاف، فالأخيرة لم يضمها سور واحد له مدخل كما هو الحال فى شاهى زنده لأن المماليك لم يفكروا قط فى تخصيص جبانة تضمهم جميعا. ولكن نرى أن كل سلطان أو أمير كبير قد ابنتى لنفسه مجمعا دينيا خيريا خاصا به يتكون فى الغالب من مدرسة أو مسجد أو خانقاه وسيل يعلوه كتاب، وقبة ضريحية له ولأولاده، إلى جانب خلاوى (طباق) للطلبة، وحوش لدفن العتقاء والمقربين، ومربع لمد السماط، وأحيانا قصير (أى قصر الصغير)، كما هو الحال فى المجموعة البنائية لكل من السلطان اينال (٧٩٤ - ٧٩٥هـ/١٣٩٢ - ١٣٩٣م) والسلطان برسباى (٨٣٥هـ/١٤٣٢م) والسلطان قايتباى (٨٨٠هـ/١٤٧٥م) والأمير كبير قرقماس (٩١١ - ٩١٣هـ/١٥٠٦ -

١٥٠٧م) كما شيدت في بعض الأحيان أضرحة مفردة مثل ضريح كل من عبد الله الدكروري (٨٧١هـ/١٤٦٦م) وتتكز بغا حوالى (٧٦٠هـ/١٣٥٩م) وغيرهما، كما تختلف مقابر سمرقند بأنها كانت تبنى بغرض إضفاء القداسة وهالة الاحترام للمدفون بها، في حين كانت مقابر المماليك مجرد مباني ملحقة بمنشآت ذات طابع خيرى للخدمة العامة.

غير أن يلاحظ أن أسلوب بناء الأضرحة في شاهى زندنه يشبه إلى حد كبير يثير الدهشة الأسلوب المتبع في الأضرحة والقباب المصرية لها تقريبا، ولعل ذلك راجع كما سبق ذكره إلى هجرة كثير من الصناع والبنائيين من تلك الأصقاع إلى مصر ومشاركتهم في تشييد هذه المباني.

فإن خصوبة مصر ورغد العيش فيها ثم بعدها عن أخطار المغول الذين قامت عواصفهم من وسط آسيا تكتسح الأقطار وتلتهم الناس، قد جعلت من الديار المصرية خير ملجأ يتوفر فيه الأمن والعيش، فهاجر إليها كثير من الفرس وأهل العراق والشام في القرن (٧هـ/١٣م) مما جعل تأثيرات معمارية وزخرفية تظهر في مصر في ذاك القرن والذي يليه، ومن أمثلة ذلك استخدام الخوذة المفصصة التي تشبه العمالة التي تكسوها بلاطات خزفية خضراء اللون بأعلى مؤذنتى جامع الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة سنة (٧٣٥هـ/١٣٣٥م)، قنتى خوند سمرا (التربة السلطانية والمؤرخة بالقرن ٨هـ/١٤م).

كما ظهر بمصر في تلك الفترة نوع من القباب عل يمثال القباب السمرقندية لها رقبة تتميز بالطول، والخوذة من غطاءين حيث يبدأ تكويرها من الداخل من عقد شبك الرقبة بينما يبدأ التكوير من الخارج على مسافة كبيرة من عتب الشباك المذكور، ووجد ذلك في القبة التي تعلوا الضريح الواقع بالركن الغربى من مدرسة الأمير صرغتمش الناصرى (٧٥٧هـ/١٣٥٦م) والقبة التي تعلوا المحراب فى إيوان القبلة بنفس المدرسة، ولهذه القبة نظيرا آخر أرقى منها هو قبتا خون سمرا (التربة السلطانية) السابق ذكرها بصحراء السويطى وقبة يونس الدوادر بالحطابة (قبل ٧٨٣هـ/١٣٨٢م).

ومما يؤكد هجرة المعماريين والفنانيين ما ذكر من أن مهندس خانقاه ببيرس

الجاشنكير (٧٠٦ - ٧٠٩ هـ/١٣٠٦ - ١٣١٠ م) كان مغولياً، كما قام معمارى فارسى قدم من تيريز ببناء مئذنتى مسجد قوصون على مثال المئذنة التى عملها خواجا على شاه وزير السلطان أبى سعيد فى جامعة بمدينة توريز (تبريز) من بلاد فارس، وكانت على شكل مئذنة خانقاه قوصون المنشأوة سنة (٧٣٧ هـ/١٣٣٦ م) وهى باقية إلى الآن بالقرافة الصغرى، كما يرجع أن المعمارى نفسه هو الذى قام ببناء مئذنتى مسجد الناصر محمد بالقلعة.

وعلى أى حال إذا كان هناك تأثير معمارى وزخرفى فارسى فلم يكن من جانب واحد، حيث كانت هناك اتصالات سياسية وحضارية وعن طريقها انتقلت بعض التأثيرات فى مصر والشام باعتبارهما من أجزاء الدولة المملوكية إلى فارس ووسط آسيا، من ذلك ما ذكره المقريزى فى حوادث سنة (٦٨٦ هـ/١٢٨٧ م) من أن السلطان المنصور قلاوون جهز "هدية سنوية إلى بركة ومبلغ ألفى دينار برسم عمارة جامع قرم وأن تكتب عليه ألقاب السلطان وجهاز حجار لنقش ذلك وكتبتها بالا صباغ، وهذا يدل على انتقال التأثيرات المملوكية إلى العمارة المغولية مثلما حدث بالعكس.

وإذا كان لين بول يقرر أن القباب البصلية ذات الرقبة الممتدة هو الشكل المفضل فى بلاد تركستان وفارس والعراق ثم انتقل إلى مصر فهذا صحيح، ولكن نود أن نقرر أيضاً أنه بناء على النص السابق الذى ذكره المقريزى يرجح أن التفصيل الذى عرفته تلك المناطق هو تأثير مصرى، حيث كان لمصر قصب السبق فى هذا منذ العصر الفاطمى فى قبتي عائكة والجعفرى (٥١٤ - ٥١٩ هـ/١١٢٠ - ١١٢٥ م)، وقبة السيدة رقية (٥٢٧ هـ/١١٣٣ م) وغيرهم، وحتى العصر المملوكى الجركسى، ثم ظهر مرة أخرى فى العصر الحديث فى إحدى قبتي جامع كعب الأخبار بالناصرية، كما أن القبة البصلية التى أصلها العقد المدبب المنفوخ ذو الأربعة مراكز المعروف خطأً بالعقد الفارسى هو أيضاً عقد مصرى الأصل ظهر فى العصر الفاطمى فى زيادة الخليفة الحافظ فى الأزهر سنة (٣٢٩ - ٣٦١ هـ/٩٧٢ م)، ووجوده فى هذا الأثر يسبق أقدم الأمثلة فى فارس بنحو قرن من الزمان إذ يؤرخ المثل الموجود فى رباط مالك فى فارس بالنصف الثانى من القرن (١ هـ/١٠٥٠ م).

غير أن مباني سمرقند تتميز بأنها أكثر براعة في استخدام بلاطات القاشاني والفسيفساء الخزفية في تزيين الواجهات والقباب، ولعل الإجابة تكمن في أمصر ليس بها الطينة الجيدة لصناعة البلاطات الخزفية والفسيفساء والخزفية، وأن ما صنع منها لم يكن جيدا، ولا تخرج عن كونها بلاطات ذات لون واحد، أخضر أو أزرق أو أبيض زينت بها بعض القباب، ولكنها لا ترقى لبلاطات سمرقند وغيرها من آسيا الوسطى وإيران.

٥ - ضريح جور أمير:

يقع ضريح جور أمير (جورى مير) فى حى روح أباد إلى الجنوب من ميدان ريكيستان قرب بوابة بخارى، إحدى بوابات مدينة سمرقند القديمة، وهذا الاسم لا يطلق فقط على الضريح المدفون به تيمورلنك، حيث أن هذا الضريح ليس مفردا، لكنه يطلق على مجموعة بنائية الضريح جزءا منها وتتكون المجموعة من خانقاه ومدرسة متقابلتان وفناء مربع مكشوف على ثلاثة جوانب منه قاعات، وفى أركانه الأربعة أربع مآذن، قام بتشبيدها من قبل محمد سلطان، حفيد تيمورلنك والقريب إلى قلبه الذى كان يؤهله لتولى الحكم بعده قرب نهاية القرن (١٤هـ/١٤م)، وعندما مات محمد سلطان على حين غرة فى طريق عودته بحملة عسكرية فى آسيا الصغرى سنة (٨٠٥هـ/١٤٠٤م) وعندما لحق به تيمور فى نفس العام الذى تم فيه تشييد الضريح، دفنا الاثنان فى قبرين متجاورين، وفى وقت لاحق دفن معهما أبناؤه وأحفاده بما فيهم أولغ بك الذى أشرف على إكمال الضريح، وكان تيمورلنك قد أوصى من قبل وفاته بأن يدفن عند قمي أستاذه ومعلمه (ميرسيد بركة) فجئ بجثمان الرجل من بلده (انخوى) فى أفغانستان ودفن فى الضريح ووضع قبر تيمور بمحاذاة قدميه.

وقد انعكست على تصميمات الضريح ونقوشه كل سمات عهد تيمورلنك من القوة والجبروت والترف والجمال، ولفناء المجموعة مدخل ضخم مزين بالفسيفساء من إنشائه أولغ بك عليه توقيع من قام ببنائه الذى جاء بصيغة عمل العبد الضعيف محمد بن محمود البناء الاصفهاني سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة ويحيط بالمجموعة سور من الرخام محفورا حفرا دقيقا وقد انتهى تعمير البناء فى عهد أولغ بك.

وقد انهارت العديد من المباني بعد تشييدها مباشرة، وعلى وجده الخصوص المنزل (الاستراحة) والمسجد (المصلى)، والمآذن التي انهارت سنة (١٣٢١هـ/١٩٠٣م) ثم أضافت هزة أرضية سنة (١٣٢٥هـ/١٩٠٧م) ضربة أخرى قاسية للمدموعة حيث لم يتبق سوى الضريح وإطلال المدرسة والخانقاه ومئذنتين، وهذا الضريح ذو شهرة واسعة، ربما يرجع ذلك إلى طرازه المعماري البديع، أو إلى كونه المدفن الذى يرقد به جثمان تيمورلنك، وربما يرجع إلى العاملين بها.

المدارس فى سمرقند العهد التيمورى:

اهتم تيمورلنك بتشييد المدارس ومن ذلك مدرسته فى سمرقند التى شيدت سنة (٨٠٣هـ/١٣٩٩م)، وهى متهدمة الآن وتدل بقاياها أنها تتبع هى الأخرى طراز المدارس السلجوقية، ويتشابه تخطيطها إلى حد كبير مع تخطيط مسجد ييبى (بى بى) خانم، حيث أن تخطيطها عبارة عن صحن أوسط مكشوف تعامد عليه أربعة أيونات على جوانبها حجرات مقببة من طابقية تطل على الصحن ببوائك ذات عقود مدببة من النوع ذى الأربعة مراكز، تركز على دعائم (أكتاف) وكانت هذه الحجرات مخصصة للدرس والتحصيل وسكنى الطلاب والأساتذة، وتتميز واجهة المدرسة الرئيسية بأنها شاهقة الارتفاع لان المعمار يصبغ الفخامة على كتلة المدخل فيجعلها مرتفعة وتزينها على جانبيها منراتان أسطوانيتان مرتفعتان.

ولاغرو فى ذلك أن يؤثر على تخطيط المسجد الجامع والمدرسة فى بعضها البعض، فإذا نظرنا إلى مصر فى العصر المملوكى بشقيه البحرى والجركس نجد أنه لا يمكن التفريق بين تخطيط كل من المدرسة أو المسجد أو الخانقاه، حيث تخطيط كل منها عبارة عن صحن أوسط مكشوف بوسط كل ضلع من أضلاعه إيوان وفى الأركان توجد مدارس فرعية وغرف الطلبة كما هو الحال فى مدرسة وجامع السلطان حسن (٧٥٧ - ٧٨٨هـ/١٣٨٤ - ١٣٨٦م)، وخانقاه ومدرسة الظاهر بقوق (٧٨٦ - ٧٨٨هـ/١٣٨٤ - ١٣٨٦م) بالنحاسين، أو درقاعة وسطى على جانبيها أيونات وسدلتان قايتباى بقلعة الكيش (٨٨٦ - ٨٩٦هـ/١٤١٨ - ١٤٩٠م)، ومدرسة بصحراء المماليك (٨٨٠هـ/١٧٥٤م).

القصور والمنازل والخيام:

تشير المعلومات القليلة المعاصرة التي جاء ذكرها في بطون بعض كتب المؤرخين إلى أنه كان بسمرقند في عهد تيمورلنك العديد من الدور الخاصة الأنيقة والقصور السلطانية تتناثر على امتداد مساحة شاسعة تمتاز ببساتينها الرائعة، تمتد إلى مسافة خمسة أو ستة أميال أو أكثر، وإلى جانب ذلك كانت توجد عشرات الآلاف من الخيام التي كانت مسرحاً للحفلات الكبرى والسمر، ويذكر وصفها بما ورد في قصص ألف ليلة وليلة، غير أنه لم يتبق شيء من هذه الدور أو القصور أو الخيام، وكل ما يعرف عن عمارة هذه المباني كما سبق ذكره من خلال كتب المؤرخين، وبالرغم من قلتها التي لا تشبع نهم الباحث في مجال الآثار والفنون ولكنها توقفتنا على جانب مهم من حضارة تلك المدينة من ناحية المباني المدنية الاجتماعية.

أما بالنسبة للقصور: فكانت تقع في وادي (كان كل) الذي يبعد ميلين إلى الشمال الشرقي من مدينة سمرقند في سهل ترويه قنوات متعددة، ويقع على مقربة من نهر زرفشان، وكان عدد هذه الخيام يقرب من خمسة عشر ألفاً أو يزيد، ولا ينزل بها رجال البلاط فحسب، بل وكذلك الشعب على اختلاف طبقاته، وإلى جانبها كانت توجد المحال التجارية الأنيقة والمصانع يمارس فيها الصناعات حرفهم والحمامات وبها المياه الساخنة.

وأول خيام كانت تضرب هناك خي خيام الأسرة الحاكمة، وتتوسط في الغالب المعسكر الذي كان ينتشر على هيئة المروحة، وتتفرغ الخيام الأخرى عن تلك المجموعة الوسطى، وكان لكل وزير ولكل أسرة مكانه المخصص له، فمنهم من كان ينزل ناحية اليمين أو ناحية الشمال أو في الصف الأول أو الثاني أو الثالث كل حسب مكانته في نظام محكم لا تعرف الفوضى طريقها إليه، حتى كان يبدو (كان كل) الجميل هذا في وقت قصير مذهل والأعلام الملونة العديدة ترفرف فوق خيامه، وكأنه حوض من الأزهار الفاتنة يداعبها النسيم.

وقد تعددت أشكال الخيام فمنها ما كان على أشكال الناقوس، وهو الشكل التي كانت عليه خيام الترك وهو الغالب، ومنها ما كان على شكل الخيمة العربية المستطيلة، أو على شكل الخيمة الفارسية المربعة التي تعرف باسم سرا برده (قصور الستائر).

وكانت الخيمة الرئيسية الخاصة بالحاكم تتميز بأن لها سقف على هيئة القبة ترتكز على سبعة قوائم (دعائم) زرقاء مذهبة فى استدارة، ويلفها جميعها نسيج من الحرير على هيئة الرواق، وإلى جانب ذلك كانت توجد أروقه ذات أعمدة على جوانب الخيمة كلها، ولكن بكل رواق ستة أعمدة، وقد استخدم فى عقد هذا البناء كله ما يزيد على الخمسمائة من الجداول والأصفر والأبيض، وكانت أرض الخيمة تفرش ببساطة أحمر مشغول بالذهب وزخارف أخرى من الحرير أبدعها الذى فى الجزء الأوسط وبأركانها أربعة أنور كبيرة قد نشرت أجنحتها، وكانت هذه الخيمة تبدو للرائى من بعيد وكأنها قلعة، وكان يحيط بالخيمة بعد ذلك سور عال ملون فى بعض أجزائه، وتزينه الشرفات والأبراج الصغيرة.

وإلى جانب هذه الخيمة كانت هناك خيام أرخى لا تقل فى روعتها وفخامتها كانت تنزل بها السلطانة وكبار الأميرات، وكان بعضها مغطى بالحرير الأصفر أو القرنفل منها وهو على فرسه، وكان يسدل عليها الأبسطة الموشاة بالذهب والفضة، وكان لها نوافذ يسدل عليها نسيج من سندس سميك حين تفتح، وعلى جانبيها ستائر أخرى من الحرير تستجدم لتمنع عنها أشعة الشمس.

وعلى هدى الآثار القليلة الباقية فى سمرقند من ذلك العهد يتضح أن المؤرخين لم يبالغوا فيما ذكروه عن هذه القصور والخيام.

مما سبق لنا يتضح لنا أن العمارة فى سمرقند فى العهد التيمورى تميزت بعدة سمات هى:

أولاً: من حيث المواد المستخدمة فى بناء العماثر وزخرفتها:

١ - تميزت منطقة بلاد ما وراء النهر بما فيها سمرقند بأنها غنية بأنواع ممتازة من الأحجار، ما بين جيرية ورملية وجرانيتية ورخام ومرمر، ولهذا جاءت المباني المشيدة من تلك الأحجار البديعة فى صلابتها واستجابتها للنحت والزخرفة فى آن واحد، وأنها ذات متانة وجمال، فالجدران والبوابات والأعمدة والدعامات والعقود تقوم متينة محكمة، مما مكن البناء والمزخرف على ابتكار أسلوب مميز.

٢ - كما وجد الآجر (الطوب المحروق) الذى استخدمه المعمار بدرجة لا تقل مهارة عن استخدامه للأحجار، فقد وجد صناع الآجر بهذه المنطقة أترية

ورملا ممتازة أجادوا حرقها ومزجها وإخراج أشكال وألوان منها فى غاية المتانة والصفاء، وقد أبدع البنائون فى استخدام هذا الحجر فى البناء والزخرفة على نحو لا يضارعهم فيه إلا البنائون الأندلسيون الذين استخدموا الحجر فى بناء الواجهات والعقود والأعمدة والقباب ومناطق انتقالها والازارات والمآذن، إلى جانب استخدام الحجر فى عمل أشكال زخرفية من مجرد تشكيل أوضاعا الحجر.

٣ - إلى جانب ذلك استخدم الجص، ولم يستخدم هذا كما هو الحال فى عمائر العصور الإسلامية الأخرى كمادة تغطى الجدران لتخفى هيئة الحجر أو اللبن أو تسد شقوقها أو أرضيته لعمل بعض الزخارف، بل استخدم هنا بطريقة مبتكرة حيث استخدم لتغطية مساحات صغيرة وسط زخارف الحجر لإضافة زخارف من ألوان أخرى، وقد ينقش الجص على هيئة الحجر نفسه، أى إن الجص يستخدم هنا كعنصر أساسى لا كمال هيئة العناصر المعمارية ذاتها.

٤ - وأيضاً برع معماريو سمرقند كما هو الحال فى منطقة وسط آسيا وإيران فى استخدام بلاطات القاشانى والفسيفساء الخزفية نقى تغطية الجدران والقباب ورقابها وكان يقصد من ذلك إدخال نوع جديد من التلوين لزينة المباني، لأن الجص لا يقبل الألوان إلا إلى حد معين، ولكن ألوان القاشانى تمتاز بالصفاء والعمق والثبات، ويقال أن القاشانى دخل فى زخرفة العمائر الإسلامية فى القرن (٨هـ/١٤م) عندما فقد الجص طلاوته واحتاج المعمارىون إلى مادة جديدة، على حين قل بل ندر استخدام الرخام فى تغشية الحوائط، ومن الأمثلة القليلة التى استعمل فيها الرخام مسجد تيمورلنك فى سمرقند المعروف بيبى (بى) خانم، وضريح شادى مملوك.

ثانياً: من حيث الخصائص والمميزات المعمارية الفنية:

١ - بالنسبة للمداخل تميزت بأنها ضخمة وبارزة ومرتفعة، يتوسطها عقود من النوع المدبب ذى الأربعة مراكز، كما فى مسجد بى بى خانم وضريح جور أمير، وهى متأثرة فى ذلك بالمداخل الإيرانية التى عرفت منذ القرن (٥هـ/١١م) فى مسجد الجمعة بأصفهان، ولم يظهر هذا النوع من المداخل فى مصر، ومن جهة أخرى فإن المداخل تؤدى إلى داخل المنشأة مباشرة وتقع على محور واحد مع إيوان

القبلة، على عكس مداخل القاهرة التي تشتمل على دركاة تلى فتحة الدخول، ثم ممر منكسر يصب في الصحن كما في مدرسة صرغتمش وخانقاه شيخو، ومدرسة السلطان حسن، ومدرسة الظاهر السلطان برقوق وغيرهم، وللمنشأة السمرقندية مدخل واحد رئيسى على عكس مصر التي يوجد بمنشأتها في بعض الأحيان أكثر من مدخل مثل مسجد الظاهر بيبرس بالظاهر، ومسجد الناصر محمد بالقلعة، وخانقاه فرج بن برقوق بصحراء المماليك.

٢ - أما المآذن في منشآت العهد التيمورى فقد تميزت بتعددتها في المنشأة الواحدة كما في مسجد بى بى خانم، وضريح جور أمير، في حين هذا الأمر لا يوجد في منشآت القاهرة، فيما عدا محاولة وحيدة سبقت الإشارة إليها في مدرسة السلطان حسن ولكنها باءت بالفشل، وتوجد المآذن في أركان البناء أو على جانبي كتلة المدخل، وهى إما مستديرة أو مثمثة ولكن يغلب عليها الشكل للمستدير (الأسطوانى)، وهى تستدق كلما ارتفعت لأعلى، ولا يكون للمئذنة في معظم الأحيان إلا شرفة واحدة في نهايتها تقوم على مقرصنات أو دلايات مما يكسب المئذنة شكل المنار، وهذه المآذن تختلف عن سائر المآذن التي بناها المسلمون في الشام ومصر وشمال أفريقيا والأندلس في أنها لا تطابق لها ولا نوافذ، فهى بناء شاهق بنى وليس فيه سلالم تؤدي إلى دورات يقف فيها المؤذن لأنها لم تكن تستخدم في الأذان بسبب ارتفاعها الكبير، وإنما كان المؤذنون يؤدون مهمتهم من فوق سطح المساجد.

ونظرا لتجاوز المعمارى الحد في ارتفاع المآذن لهذا كان لابد من توسيع قاعدة المئذنة على الأرض وتعميق أساساتها حتى تتحمل هذا الارتفاع، وكان لابد له أيضا من فصل المئذنة عن البناء لأنها أصبحت بناء قائما بذاته لا يهمل وصله بالمبنى، ويعود ظهور هذا الطراز من المآذن وأسيا الوسطى إلى زمن السلاجقة.

وهنا يمكننا أن نقول أنه ربما كان بناء المآذن في الطراز السلجوقى وما بعده متأثرا بالأضرحة البرجية التي عرفتها إيران منذ حكم الأسرة السامانية (٢٦١ - ٣٨٩هـ/٨٧٤ - ٩٩٩م)، وبعد ضريح (جنبادى قابوس) أكبر وأقدم مبنى معروف من هذه الأضرحة البرجية التي ظهرت في العمارة الإسلامية في إيران في العهود الأولى، وقطر هذا البرج (٢٥، ١٥م) وارتفاعه (٤٠، ٥٠م) ويضيق قطر المبنى

تدرجيا كلما ارتفع لأعلى، وقد شيده حاكم إقليم جرجان الذى يدعى قابوس شمالي غرب نيسابور فى حوالى سنة (٣٩٧ - ٣٩٨هـ/ ١٠١٦ - ١٠١٧م) ومع أن فكرة تشييد هذه المباني كانت بغرض استخدامه كضريح ألا أنه من المعتقد أنه كان رمزا لقوة الحاكم السياسية، كما كانت المآذن الاسطوانية، الشاهقة الارتفاع التى تستدق كلما ارتفعت لأعلى رمز الفخامة وقوة ومتانة البناء إلى جانب كونها تعنى الرمز السابق وهو هيبة الدولة والحاكم السياسية.

٣ - تميزت القباب السمرقندية بأن أغلبها يقوم على رقاب عالية اسطوانية أكثر مما هو مألوف عند تشييد القباب فى مناطق كثيرة من العالم، كما تميزت بشكلها البصلى المفصص بعد أن كانت فى العصر المغولى ذات شكل بصلى خفيف. والمآذن والقباب السمرقندية قد تكون من الحجر المنقوش بالزخارف أو من الآجر غير المطلى ذى الألوان المتعددة، أو بالآجر المطلى بالدهاء والفسيفساء المصنوعة منه، حيث وصل الفنان بهذا الأسلوب إلى أطيح النتائج التى بلغت حد الإتقان والإبداع، وقد تغطى بمربعات من القاشانى ذى رسوم تحت الدهان، أو لنجوم من القاشانى يملأ ما بينها من الفراغ فى زيادة الألوان التى استعملوها فكانت الفسيفساء تشمل الألوان الأزرق والأخضر والأصفر والأسمر والأحمر والأبيض.

٤ - تميزت مساجد ومدارس سمرقند بأن تخطيطها عبارة عن صحن أوسط مكشوف مربع أو مستطيل تحيط به أربعة أيونات بعضها مغطى الأخر مغطى بقباب، وعلى جوانبها مجموعات من الغرف، ويتميز أيون القبلة، بأنه أكبر الأيونات حيث يحتوى على محراب للصلاة ومنبر للخطبة وتقام فيه صلاة الجمعة كما فى مسجد بى بى خانم.

٥ - عنى الفنان السمرقندى فى العهد التيمورى، كما كان الحال فيما سبق باستخدام المقرصنات فى تزيين العمائر عناية تذكر بما نهجه زملاؤهم فى الطراز الأندلسى المغربى، كما فى قصر الحمراء، ولكن بشئ من البساطة دون المبالغة التى تفقد العمائر الاتزان والحشمة.
